سأسير معك في هذا الطريق

سأسير معك في هذا الطريق

قصص

عماد حنا

تصميم الغلاف : محمد كامل

رقم الإيداع : ٢٠٢٠٩/٢٠١٢

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ١٧٢- ٥

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨

مكتبة اكتب : ٤٠ ش أحمد قاسم جودة من ش عباس العقاد ، خلف سيراميكا كليوباترا ، القاهرة .

هاتف : ٠١١١٤٣٢٨٥٢٥

E – mail :daroktob١@yahoo.com

Facebook : دار أكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، ٢٠١٢م

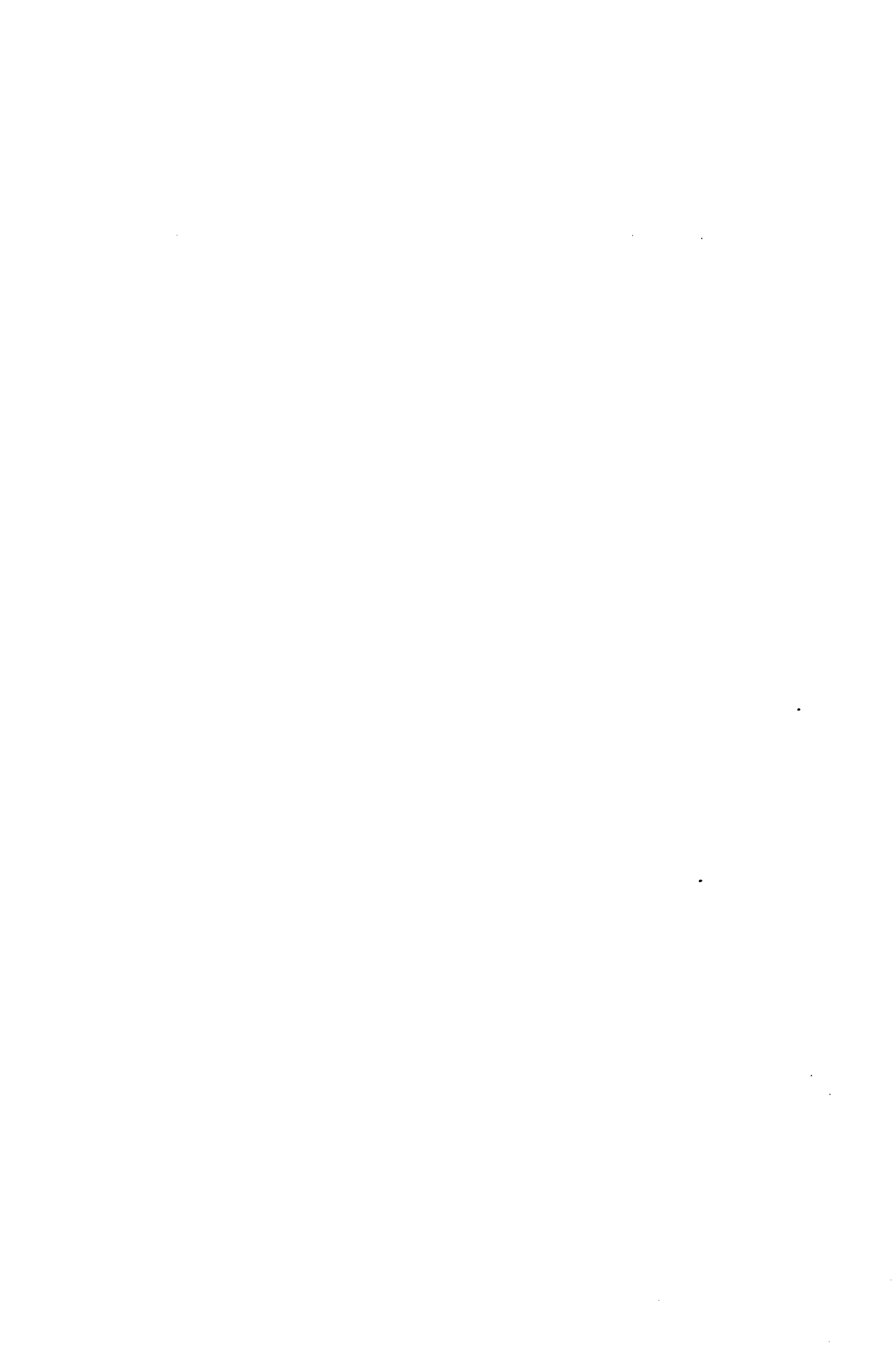
سأسير معك في هذا الطريق

عماد حنّا

قصص



دار اكتب للنشر والتوزيع



الإهداء

إليها

شريكة حياتي وصديقتي

ومرآتي ومنصفتي وظالمتي

إلي هايدي

الرفيقة التي عاشت معي

كل التحديات ... وكل الاخفاقات

وأيضا كل الانتصارات

إليها أهدي

{سأسير معك هذا الطريق}

كل الطريق

أو ... ما تبقى منه

عماد

سأسير معك في هذا الطريق



أجل إنه هو. لقد ظننت أن أخباره انتهت منذ مدة، منذ تلك الحادثة المشئومة. لقد ظننت أنني لن أسمع عنه مرة أخرى، بعد أن انتقل من قمة شهرته إلى قاع النسيان. لكن صورته تعود مرة أخرى على صفحات الجرائد، يعلوها ذلك العنوان الغريب: "طريق الانتصار".

شرعت أقرأ السطور: "إلى كل شخص يدعي أنه أقل من الآخرين، إلى كل شخص يقول إن الله ميز الآخرين عنه وأحبهم دونه بسبب إصابة أو عاهة ، سارع بالاشتراك بهذا السباق للكراسي المتحركة. ليس الهدف معرفة من الفائز، أو من الذي سيصل أولًا إلى خط النهاية؛ ولكنه إثبات ذاتك وقدرتك أن تعيش مثل الآخرين. السباق ينظمه بطل سباق السيارات السابق "جون الكسندر"، ومكان السباق هو حديقة مترله".

جون الكسندر.. إنه هكذا دائما يريد أن تستحوذ أخباره على اهتمام الآخرين.

عدت بذهني إلى الوراء ثلاث سنوات. في ذلك اليوم المشئوم، كان ينطلق بسيارته في السباق.. كان المتقدم دومًا، ولا يعرف الخوف طريقه إلى قلبه. مضى إلى المنحنى الأخير يحتل المقدمة، تليه سيارة تحاول أن تتخطاه، ولو على أشلائه.. لا زال جون في المقدمة.. دقائق قليلة وتعلن النتيجة، ويفوز جون ويثبت أنه البطل.. الأفضل دائما.

توقفت عن التفكير، كما لو كنت أحاول أن أعفي نفسي من اجترار ذكرى المشهد الأخير، الذي أودى بجون كبطل عالمي في سباق السيارات. كانت الذكرى تؤلمني.. صمم المتسابق الذي يليه أن يتخطاه في زاوية المنحنى، ولم ينجح في ذلك إلا بصدمة قوية، أطاحت بسيارة جون بعيدًا عن الحلبة، لتهوي في المنحدر، ثم تنفجر انفجارًا مدويا.

أتذكر زيارتي الأولى له بالمستشفى.. كان غائبًا عن الوعي، وقد بترت إحدى ساقيه، وتشوهت معالم وسامته. لم أعاود زيارته، ربما بسبب انتقاله من المسكن المجاور إلى مدينة بعيدة، وربما لأنني تعودت أن أقابل شخصًا نشيطًا مبتسمًا وسيمًا.. وحتى اليوم وأنا أخشى مقابلته. لكنني حرصت على متابعة

أخباره دون علمه، فعرفت أنه انتقل إلى مدينة ساحلية هو وخادمه العجوز، الذي كنت أتصل به كثيرًا -دون أن أخبره عن اسمي- لأعرف منه أخبار مخدومه.. ولكن ما أن توفي الخادم، حتى انقطعت الأخبار عني.

حاولت أن أنساه، وظننت أنني نجحت في ذلك.. إلى أن رأيت صورته بالصحف مرة أخرى..ما سر عودته إلى الحياة؟..

كان خادمه يبلغني أنه يعمل في مشروع صغير ليشغل به وقته، ولكنه لم يخبرني عن نوعية ذلك المشروع. طوال السنوات الماضية لم أرغب في مقابلته محاولًا نسيانه.. هل سأتمكن من مواجهته؟ ترى ماذا سيفعل عندما يراني؟ أعتقد أنه لا يزال يكرهني.

أجل.. أنا الذي أزحته عن الطريق من أمامي، وانتزعت الفوز منه تلك المرة وأصبحت البطل.

أغمضت عيني، فراودني نفس الحلم الذي يؤرقني طيلة الثلاث السنوات الماضية.. سيارة مسرعة في طريقها للفوز.. سيارة أخرى تحاول اللحاق بها، تضربها من الخلف..تفوز السيارة الثانية.. ويدوي انفجار الأولى عاليًا.

لا أريد الاسترسال في هذه الذكرى الأليمة.

ماذا دهاني؟.. ينتابني شوق جارف لرؤيته، وجدت نفسي أتجه إلى سيارتي وأتحرك بها إلى خارج المدينة.. لست أدري لماذا، ولا أدري ماذا سأقول؟.. ظللت طوال الثلاث سنوات الماضية أخشى هذا اللقاء، فماذا دهاني وأنا أسعى اليوم إليه، تُرى ماذا سيفعل عندما يراني؟

تذكرت اللقاء الأول بيننا.. كان نجمًا لامعًا وبطلًا شهيرًا.. وكنت في أول الطريق. أظهر لي حبًا، ورعاية، وتبناني في فريقه.. ومع ذلك لم أستطع أن أميل إليه. لم نتشاجر يومًا، ولكني لم أحبه..

عدت بذاكرتي – ثانية– إلى يوم السباق المشهود، وفي ذلك اليوم طمأنني جون بقوله: "سيكون الانتصار حليفنا، سننتصر معًا".

أجبته في نفسي: "بل سأنتصر وحدي، لن أكون تابعًا لك".

ولكنني لم أحقق أي مجد. فبعد إصابة جون، لا أعلم ماذا اعتراني، كنت كلما حاولت التقدم في طريق السباق، ونظرت إلى المرآة لأجد سيارة من خلفي تحاول أن تتخطاني وتزيحني من الطريق، أسمح لها أن تتخطاني وتتركني في المؤخرة.. لم أستطع الصمود، اعتزلت دون أن أحقق أي نجاح.. كان شبح ما فعلته بجون يطاردني.

ثقلت قدماي عندما اقتربت من بيت جون. حديقة المنزل جميلة وواسعة، يخترقها طريق صغير يدور حول البيت، ومقسم كما لو كان حلبة سباق صغيرة.. تقدمت، فوجدت الطريق مُعد بالإشارات للسباق.. عادت الذكرى المشئومة إلى ذاكرتي مرة أخرى.. سيارة سباق مسرعة، وأخرى تضربها من الخلف.. سيارة تفوز، وأخرى تنفجر.

تراجعت متباطئًا.. لا يمكنني أن أواجه جون. أردت أن أهرب، فتحت الباب لأخرج.. ولكن صوتًا رقيقًا ناداني باسمي.

كان هو.. لم يتغير كثيرًا.. ابتسم وجهه، ولكنه لم يركض للقائي كعادته.. كان أسير مقعده، الذي حكمت أنا عليه به طيلة حياته.. تقدم بإصرار، ويداه تعصران العجلات. دمعت عيناي.. تقدم ببطء وسط الأزهار.. احتضنتني كلماته:

"كنت أنتظرك، لقد طالت غيبتك كثيرًا"

انحنيت على مقعده، تعانقنا كأحب الأصدقاء، أخفيت رأسي في صدره.. وبكيت.



المسافة التي بيننا



تقف على الكورنيش، وهي تنتظر العربة التي تنقلها إلى مكان عملها، كعادتها كل يوم. لكنها كانت في هذا اليوم بالذات مشغولة الذهن جدًا، إذ أن عليها أن تتخذ قرارًا مصيريا في حياتها.. ولا تعرف كيف تقرر.

نظرت إلى الخلف، لترى ذلك البحر الكبير، فتنهدت في حسرة، وهي ترى تلك الأمواج المتتابعة في جمال، والتي لم تتخيل أبدًا أنها في يوم من الأيام من الممكن أن تفكر في الابتعاد عنها.

اتجهت بنظرها إلى الأفق، حيث الصخرة الصغيرة التي أحبتها.. تلك الصخرة التي شهدت طفولتها وصباها ومراهقتها إلى أن صارت شابة، ولا تزال الصخرة صديقتها وأنيسة وحدتها.

البحر حياتها.. لم تفكر مطلقا أنها يمكن في يوم من الأيام أن تترك ذلك المكان لأي سبب من الأسباب.

لقد كان بيتها قريبا منه جدًا.. عندما تخرج إلى شرفة بيتها تنظر إليه.. تغرق في أفكارها وتنسى ذاتها وهي تنظر إلى تلك الصخرة.. تتأملها..

صخرة صغيرة جدًا، لكنها جميلة. وأيضا غادرة!..

يظن السابح إليها أنه وصل إلى بر الأمان، لكن تعلو الأمواج، فتختفي الصخرة.. كثيرًا ما تسببت هذه الصخرة في قتل من يلجأ إليها.. لكنها لم تكترث لتلك الصفة البغيضة لصخرتها.. بل كانت تترل من بيتها وتقف بالساعات أمامها دون أي ملل أو تعب.

والآن..حانت اللحظة الحاسمة، وعليها أن تقرر أن تترك ذلك المكان الرائع الذي أحبته.. تترك دنياها الصغيرة والجميلة، لتذهب إلى مكان آخر مجهول لا تعرف عنه شيئًا.

هي لا تدري.. لكنها عليها أن تقرر أيهما أهم بالنسبة لها.. المكان أم الشخص؟!

تفكر في ذلك الشخص الذي يريد لها أن تترك دنياها هذه.. لم يكن من نفس بلدتها، ولكنها تآلفت معه بسهولة ويسر.. بدا كما لو كان قد جاء إلى تلك البلدة خصيصًا لأجلها..

يريد أن يغير عالمها بالكامل، وفي أيام قليلة دخل إلى أعماقها، ليكتشفها أكثر فأكثر، يحبها أكثر فأكثر.. تتدفق محبته لها، فلا تستطع أن تمنع نفسها من حبه.

ولكن في نفس الوقت هذا المكان ليس مكانه، ويجب عليه أن يرحل. ويريدها أن تغير من حياتها لتصير حياته.. تغير مكانها.. أصدقاءها.. تغييرا كاملا في الحياة سيكون النتيجة.

كل هذا كفيل بأن يجعلها تفرح.. الشعور بالمحبة شيء رائع، وهي تعرف أنه يحبها.. لكن تبعات تلك المحبة ثقيلة.. المحبة بالنسبة لها تعني "الترك".. ترك كل شيء في سبيله.. لا تعرف بماذا ترد.. بداخلها هاتف يقول نعم، تنظر إلى ذلك البحر تقول.. لا...

هو يريدها بالكامل له.. وهي تريده أن يبقى بجانبها. تريد أن تمتلك القديم والجديد معًا.. البحر، ومن أحبها.. لكن هذا مستحيل.

قالت في خجل:

-لا أستطيع أن أترك البحر.

رد بضيق:

-أيهما أهم بالنسبة لك... المكان أم الشخص؟

وعرفت أنه لا مكان للتفاوض.. إنه يرفض أي شيء عاشت لأجله من قبل.. يريد أن تبدأ معه حياه جديدة، لا صلة لها بالقديم.. هل تستطيع أن تهب نفسها له.. هل..؟

كانت الدنيا تمطر مطرًا خفيفًا، وهي لا تزال تنظر إلى البحر متأملة.. قطرات من الماء تتساقط على خديها، لم تدرك دموعها أم قطرات المطر المتساقط.. ولم تستطع معرفة قرارها بعد.

جاءت العربة تنقلها إلى عملها.. أخذت تطلق آلة التنبيه.. ينزل السائق إليها وهو متضجر.. يربت على كتفيها لينبهها وهو يقول:

-اسرعي.. لقد تأخرنا اليوم.

تركب العربة وهي شاردة، تنظر إلى البحر طوال الطريق.. ترى من أحبها في مخيلتها وهو يسألها:

-أيهما أهم بالنسبة لكِ... المكان أم الشخص؟

هل تستطيع أن تترك كل هذا؟..

وصلت إلى مكان عملها، وفي مخيلتها من أحبها وهو يدعوها..

"لا مكان للقديم، الكل يجب أن يكون جديدًا.. إنني أدعوكِ لحياة جديدة".

تدخل إلى مقر عملها، وبينما دمعة حزينة تتسلل إلى مقلتيها -لم تشأ أن تمسحها- أخذت تمارس عملها العادي، بينما السيارة في الخارج تنتظرها، كي تعيدها لحياتها مرة أخرى.



هل تريد أن تكون أبي؟



بعد كثير من التردد، رفع يده الصغيرة، وشب عن الأرض ليدق جرس الباب.. كان خائفًا بعض الشيء.. فكر أن يهرب، ولكنه تماسك وظل واقفًا.. دقائق قليلة وفتح الباب، ليجد أمامه رجلًا في ثيابه المترلية.. نظر إليه.. كان في حال يرثى لها.. شعر طويل مجعد أبيض.. عيون لم تذق النوم حمراء متورمة من البكاء.. وجه أحمر متجهم..

شعر بالخوف منه ولسان حاله يقول:

"ما الذي جاء بي إلى هنا؟!!".

قطع أفكاره سؤال الرجل له:

- ماذا تريد يا بني؟

-هل أنت الأستاذ صالح؟

-أجل

-أنا أيمن

-أهلًا بك... بماذا أخدمك؟

تردد الصبي قليلًا، وبدا وكأنه لا يعرف كيف يبدأ الحديث... ثم قال أخيرًا:

-هل تسمح لي بالدخول؟

أشار الرجل إلى كرسي قريب، وقال:

-تفضل!

جلس الصبي، وأمامه جلس الرجل.. ثم قال يستحثه على الكلام:

-إذًا...!

لا يزال الصبي مترددًا، ولكنه استجمع قواه وقال:

-أنا أيمن ابن مرزوق

نظر الرجل إليه... ومسح عينيه المتورمة كي يتمكن من أن يرى الصبي جيدًا وقال:

-أنت..؟

-أجل.

-أنت ابن الرجل الذي أفسد حياتي؟.. أم إنه مجرد تشابه في الأسماء؟!

الصبي مترددًا:

- بل أنا هو.. ابن من قتل ابنك في العام الماضي.

نظر له كالمجنون.. وبدا أنه لا يدري ماذا يقول أو ماذا يفعل؟

- لماذا جئت؟.. من المفروض أن يخرج والدك من السجن اليوم.. ألن تذهب للقائه؟

قال:

- شعرت أنك أنت أيضا سوف تذهب للقائه.. لذلك جئت لتحقيق العدل.

"العدل".. مصدر تعب ذلك الرجل، الذي ظل طوال عام كامل يتساءل أين العدل في كل الذي حدث له ولعائلته التي فقدها، لذلك ما إن نطق الصبي بهذه الكلمة، كان كمن ضغط على جرح عميق، فصرخ:

- عدل؟ أي عدل هذا؟! أن يقتل ابني الذي انتظرت وصوله إلى هذه الدنيا أربعة عشر سنة.. أربعة عشر سنة أنتظرته أنا وأمه، ويأتي هو ببساطة ويصدمه بالسيارة ويهرب! وفي آخر الأمر يدخل السجن سنة!.. سنة واحدة بدلًا من أن يشنق!.. هل هذا هو العدل

- سيدي..

قاطعه:

- هل تعلم أنه لم يقتل ابني فقط؟.. لقد قتل زوجتي أيضًا.. هل تعلم هذا؟

نظر الولد إليه مشدوها.. وقال:

- زوجتك!.. كلا.. لم أعلم.. لقد قالوا لي إنه صدم شخصًا واحدًا فقط .. طفلًا..

اقترب وجه الرجل من وجه الصبي حتى كادا أن يلتصقا، وهو يصرخ:

- ومع ذلك فقد قتل أمه، التي ظلت تبكي طفلها أربعين يوما، وبعدها لم تستطع العيش بدونه، فمرضت وكرهت الحياة، ففارقتني لتموت حزنًا وغمًا، وتتركني بدورها وحدي سجينًا للوحشة والضيق والحقد. وفي النهاية تقول إنك جئت من أجل العدل.. هل تسمي الذي حدث هذا عدلًا؟!..

بدا وكأن الصبي يحاول أن يزن كلماته جيدًا وهو يتكلم:

-بالتأكيد لا.. لذلك جئت لكي تحقق العدل.

رفع الرجل صوته أكثر.. رد عليه بإصرار:

-العدل لن تحققه أنت في هذا المكان، بل أنا الذي سأحققه.. ولن أحققه هنا، بل هناك على عتبة السجن، ومعي هذا...

يخرج من جيبه مسدسًا صغيرًا.. ثم يكمل كلامه:

-هذا وحده سيحقق العدل.. وسيُريحيني، ويُريح زوجتي، التي ماتت بسبب والدك.

في صوت مرتعش يرد:

-يحق لك سيدي أن تفعل هذا.. وربما سيشفي هذا غليلك.. ولكنك لن تحقق العدل أبدًا بهذا..

وقف الرجل، وأخذ يسير بعصبية ظاهرة، ثم التفت إلى الصبي وقال:

-لن أحقق العدل.. من قتل يُقتل.. أليس هذا عدلا؟

وقف الولد بدوره، وقد أكسبه الحديث شجاعة مفاجئة، فقال:

-ولكنك تظلمني أنا.. أنا أحتاج لأب.. وأنت ستأخذ مني أبي.. إنه ليس أبي فقط.. بل أبي وصديقي.. أبي الذي كاد أن يفقد عقله عندما أُصبت بانفجار الزائدة الدودية، فحملني إلى سيارته محاولًا إسعافي، واختل توازن السيارة منه، فصدم طفلا

يمشي في الشارع.. ولكنه لم ير شيئًا، لأن ذهنه كان مشغولًا بشيء واحد، وهو أن يصل إلى المستشفى لكي ينقذني.. هل أنت عادل وأنت تفقدني أعز ما أملك؟.. أنا لم أفعل لك شيئًا، لتفعل معي هذا.

تشنجت أعصاب الولد.. وراحت الكلمات تهرب من ذهنه ولسانه.. فتوقف يمسح دموعا سالت من مُقلتيه.. بينما لمعت عينا الرجل وهو يرى الولد ويرى فيه صورة ابنه الذي فقده.. بدا له أن كلمة العدل ضاعت وسط كثير من المعاني.. كيف له أن يحقق العدل لنفسه دون أن يظلم غيره؟، سؤال صعب..

تساءل بصوت انخفضت حدته عن ذي قبل:

- وأين العدل في نظرك؟

لم يكن -في الواقع- السؤال موجها للصبي.. ولكن الصبي كان ينتظر هذا السؤال، فقال سريعا:

- خذني أنا.

نظر الرجل باستغراب.. هل يريد الابن أن يفدي أباه؟.. هل يقصد هذا؟

- هل تريد أن أقتلك؟

-سيتحقق هكذا العدل بالكامل، فأنت فقدت أبنك وأبي بهذه الطريقة يفقد ابنه.. ومن يدري، فربما أمي تموت حزنًا عليَّ.. فتصبحان خالصين.. ولكني لم أقصد هذا..

يكمل..

-خذني لكي أكون ابنك.. بديلًا عن ابنك الذي راح.. سأكون لك نعم الابن.. وأعرف أنك ستكون أبًا جيدًا.. فقط.. اترك أبي ليعيش.

ابتسم الرجل ابتسامة مريرة وقال:

-أنت لن تستطيع أن تكون لي ابنا أيها الصبي.. أنت تحب أباك إلى درجة أنك تضحي بنفسك في سبيله.. تلك التضحية التي جعلتك تريد أن تتركه وتبقى معي، على أن يظل أبوك حيًا.. يبدو أن أباك رجلًا صالحًا بالنسبة لك.. أليس كذلك؟

نظر الولد إلى الرجل وقال:

-طيب وحنون.. يحبني ويصادقني.. عام كامل افتقدته كثيرًا.. لقد كنت في المستشفى عندما قُبض عليه.. وقتها جاء إليّ بعد أن أفقت من العملية التي أُجريت لي وقال: "يابني... لقد اطمأن قلبي عليك.. ولكن في سبيل ما فعلت، دون أن أقصد، قتلت شخصًا آخرًا.. ليسامحني القدير على هذا الأمر

الذي لم أكن أقصده.. كلما تصلي أذكرني، واذكر من تسببت في أذيتهم"..

لم أره أبدا بعد ذلك.. لم ترغب أمي أبدًا أن أزوره في السجن، حتى يظل أبي محتفظًا بصورته الحلوة في ذهني..

لم يستطع الرجل أن يستمع أكثر، فصرخ في الصبي:

-اذهب الآن.. اذهب لتلتقى بأبيك.. لتشبع به ولترتمي في حضنه.. اذهب واتركني.

ألح الصبي..

- هل ستترك أبي ليعيش؟

لم يتمالك الرجل نفسه، فأجهش بالبكا، وترك الولد وحده، وذهب إلى غرفة أخرى.. لم يعرف الصبي ماذا يفعل.. ولكنه ذهب وراءه إلى غرفة النوم، ليجد على السرير صورة ولد صغير وصورة امرأة، وبجانب الأثنين مسدسا. ارتمى الرجل المنهار على السرير.. ومن وراءه الولد يربت على كتفه ويقول:

-سيدي!

نظر الرجل إليه بعيون تائهة..

- هل لك أن تتركني وحدي؟ .. أرجوك!

-وداعا سيدي.. أتسمح أن أزورك بين فترة وأخرى

نظر إليه الرجل.. أمسك يده.. احتضنه وقال:

-إنني فعلا أحتاجك.. هل تعدني بأن تفعل؟

أجابه بابتسامة أشرقت على وجهه:

-أجل.. لقد أصبحت صديقي.



في انتظار الطائرة



تشعر بالتوتر الشديد وهي تنتظر الطائرة التي سوف تقلها إلى أمريكا..تستمع إلى المذيع، الذي ينقل المعلومات بإصغاء شديد في انتظار أن يسمحوا لها بدخول الطائرة. مشاعرها متناقضة.. ما بين رهبة السفر الطويل، وتحقيق الحلم الكبير.. لقد تعبت كثيرًا من هذه البلد، وأيضا تعبت من الناس الذين في هذه البلد. مشاعرها محطمة، وثقتها في الناس معدومة.. صدمت من أقرب الأقربين، وأصبح لسان حالها ما يتغناه مدحت صالح إذ يقول: "رافضك يا زماني يا مكاني يا أواني.. أنا عايز أعيش في كوكب تاني".. كانت هذه هي مشاعرها، بعد أن كُسرت وجُرحت وتحطمت.. وتمنت لو تكون أمريكا هي ذلك الكوكب الثاني، الذي تعول عليه كل آمالها وطموحاتها.

إنها غير مفهومة، وكل من يحيط بها لا يتمنى لها سوى الضغينة والشر.. فقدت ثقتها في الناس، ولذلك قررت

الهجرة.. قررت أن تجرب حظها في مكان آخر مع أناس آخرين، ربما تجد اختلافا في المعاملة والتقدير.

عندما قالت لأسرتها أنها وضعت اسمها بين الراغبين في السفر والهجرة، قالوا إن الفرصة للمكسب ضعيفة جدًا، وسط آلاف المتقدمين لهذا الأمر.. ولكنها قررت أن تجرب..

وكانت المفاجأة أنها فازت في تلك القرعة، وهي قلما تفوز في أي مسابقات، فهي في هذا الأمر سيئة الحظ. ولكن ها هي تفوز الآن.. هل أراد لها الله أن يعطيها فرصة أخرى لتستمتع بالحياة في بلد آخر، يبعد عن بلدها الحالي بآلاف الأميال؟.. ربما.. ولكنها بعد أن فازت بما ظلت تحلم به، من جديد شعرت بالخوف.. أهي مغامرة أم مقامرة على حياة اعتادتها، وإن كانت لم تحبها كثيرًا.

تشعر بتوتر شديد، وكلما يقترب موعد الطائرة تشعر بتوتر أكثر. أحست بقليل من الندم، لأنها رفضت أن يأتي أهلها لتوديعها بالمطار.. لقد كانت حجتها لهم أنها لا تحب لحظات الوداع، ولكنها في داخلها كانت تريد أن تبدأ حياتها الجديدة منذ لحظة دخولها المطار.. تنظر في ساعتها.. يبدو أنها أتت مبكرًا .. تشعر بالجوع، تتجه الى أقرب متجر، تشتري باكو بسكويت، وتتجه إلى مقعد قريب يمكنها من سماع صوت

المذيع إذا أعلن عن طائرتها.. أغمضت عينيها، وتخيلت أهلها وأصدقاءها الذين تركتهم، وثمانية وعشرين عاما من حياتها سوف يتحولون بعد قليل إلى مجرد ذكرى.. يجلس بالقرب من مقعدها شاب يُلقي عليها التحية.. ودون أن تنظر إليه، ردت التحية بمثلها وإن شابها بعض الجفاء. وبينما توترها يزداد.. ف الرجل الجالس بجوارها هادئ ومبتسم!..

أخذت تبحث عن باكو البسكويت..

- ترى أين وضعته؟

نظر إليها الشاب متساءلًا:

- ماذا؟

نظرت له شذرًا، كما لو كانت تريد أن تقتله لأنه تدخل فيما لا يعنيه.. ولكنها اكتفت بالرد المقتضب:

- لا شيء.

فعاد الشاب الغريب إلى صمته، بينما وجدت باكو البسكويت بجانبها، على الطاولة التي بينها وبين الشاب. فتحت الباكو، وتناولت حبة من البسكويت، ووضعت الباكو مكانه.. ومما أدهشها أنها وجدت الشاب يبتسم في هدوء، ويمسك بباكو البسكويت بدوره، ويتناول حبة، ويرجع الباكو مكانه،

ويأكل حبة البسكويت بمنتهى الهدوء.. بينما هي تنظر إليه، وقد وصلت إلى مرحلة الغليان!

كعادتها، صارت تمسك بيديها، وتحك الكفين بعضهما ببعض عندما تنفعل. من هذا السمج الذي يقتحم الخصوصيات بدون استئذان؟.. إنه أمر بسيط، ولكنه وقح.

مشاعرها متناقضة بين تفاهة الشيء الذي يغضبها، وبين عدم استطاعتها أن تسيطر على غضبها.. تحاول ألا يظهر هذا على سلوكها أو على وجهها.. تمتد يدها إلى باكو البسكويت، لتتناول قطعة أخرى، وتفاجأ بصاحبنا هذا -بنفس الهدوء- تمتد يده، ليتناول بدوره قطعة من البسكويت.. يتحول وجهها لونه الى الأحمر القاتم من فرط الانفعال.. تمنت لو تصرخ في وجهه، ولكنها تحاول أن تتمالك نفسها، فالذي أخذه مجرد قطعة بسكويت (لا راحت ولا جت)، وسيضحك منها الناس اذا احتدت على هذا الأمر التافه. تمتد يدها، وتأخذ قطعة جديدة من البسكويت، لتجد أنه هو أيضا -مع تلك الابتسامة التي تستفزها- يأخذ قطعة، تاركين قطعة واحدة من البسكويت على الطاولة.

أخذت تنظر في ساعتها.. متى تتخلص من هذا السمج؟.. هل هو نوع من المعاكسة السخيفة لرجل يريد أن يتعرف على

شابة؟ ربما، ولكنه لم ينجح أبدًا في جذب انتباهها بصورة إيجابية.

بهدوء.. نظرت إلى القطعة الأخيرة، فوجدت ذلك الشاب وقد امتدت يده ليقسمها إلى نصفين، يأخذ نصفا ويأكله، ويترك النصف الآخر لها.

وكأنما بفعلته هذه أشعل الفتيل الذي يؤدي إلى الانفجار، فقامت من مكانها، ونظرت إليه شذرًا. وقبل أن تنطلق لتصب لعناتها عليه، ملأ صوت المذيع الداخلي المكان:

"على المتجهين إلى نيويورك التوجه إلى...... "

أوقف المذيع كل ما كانت تنوي أن تفعله -لحسن حظ الرجل- فما كان منها إلا أن قالت:

-هذه طائرتي.

وبهدوء، ابتسم لها الرجل ابتسامته الودودة، وقال:

- في أمان الله يا آنستي... سررت بمعرفتك.

رغبت أن تقول شيئًا.. أي شيء يطفئ الغضب بداخلها.. ولكنها يجب أن تغادر.. لم تجد شيئًا.. قالت له بحنق شديد:

- سلام.

وتركت المكان مسرعة، وفي يدها جواز السفر، لتلحق بالطائرة.

* * *

على مقعدها المريح.. بداخلها كل تلك المشاعر تجاه شخص لم يتعامل معها سوى لحظات، حتى أنه أنساها كل ما كان يعتريها من مخاوف تجاه أرض الغربة.. مدت يدها إلى حقيبتها، لتتناول منها بعض المناديل ونظارتها..وكانت المفاجأة.. أنه باكو البسكويت الذي اشترته من المطار وقد وضعته في الحقيبة!

وشعرت كأن دلوًا من الماء البارد سُكب على رأسها..

لم يكن هو الذي تطفل عليها، بل هي التي تطفلت عليه.. ماذا يقول عليها الآن.. دمعت عيناها، وأغمضتها دون أن تحاول أن تمسحها.. وفي مخيلتها شاهدت كثيرًا من الذكريات التي أغضبتها من أصدقاء وزملاء.. ماذا لو كانت كل تلك المواقف تشبه هذا الموقف الذي حدث؟.. ماذا لو كانت هي المخطئة في حق الآخرين، وبالرغم من ذلك ملأت الدنيا صياحًا وتذمرًا، ولكن لم تسنح لها الفرصة أن تكتشف هذا الأمر مثلما حدث الآن؟.. لماذا لم يكن رد فعلها هو نفس ردة فعل الشاب؟، ابتسامة بسيطة دون أن تفقد سلامها..

ربما تغيير الأرض والناس لن يحل مشكلتها!

إنـها لك ... لقد ساعدتنـي



-استيقظ يا أبي... لقد حان الوقت.

كانت هذه هي المرة الأولى، التي فيها يستيقظ ابني من النوم مبكرًا، ليذهب إلى المدرسة. في الواقع لقد كانت الأسرة كلها تعتمد عليَّ في هذا الموضوع، نظرًا لعادتي الاستيقاظ مبكرًا، واستغلال الصباح الباكر في العمل، فمن كان مثلي، وله من الأطفال ثمانية في أعمار مختلفة، وينشد الهدوء، لابد أن يسعى للاستيقاظ مبكرًا قبل الجميع، فيجد قليلا من الهدوء والصفاء الذهني، الذي يمكن أن يستغلهما في الصباح الباكر..

ولكن في هذا اليوم بالذات، كان إدوار -أصغر أبنائي سنًا- هو الذي يشجعني على الاستيقاظ. نظرت إلى ساعتي.. لا يزال الوقت مبكرًا جدًا.. إنه وقت استيقاظي بالفعل، ولكنه أبدًا لم يكن وقت المدرسة. على أي حال قمت من نومي، وضاع عليّ يوم من العمل، إذ بحركة إدوار وصوته، الذي كان يظن

أنه خافت، ساهم في استيقاظ والدته وبعض أخوته. قمت مستسلمًا، بينما ابني ينظر إليّ بعيون تلمع قائلًا:

-صباح الخير يا أبي.

- صباح الخير يا إدوار... ما السبب في هذا الاستيقاظ المبكر جدًا؟

-أنني لم أنم طوال الليل يا أبي.

-لماذا؟، لعل المانع خيرا.

-ألا تعلم يا أبي؟، إنه اليوم الكبير.. يوم المدرسة، والمسابقة التي أقامتها ودخلت فيها.

-آه!

قمت من نومي، وقد عرفت أني لن أتمكن في هذا الصباح من أن أنجز أي عمل. على أي حال أنا اليوم لن أذهب إلى عملي، وسأذهب مع ابني إلى مدرسته، لحضور تلك الحفلة السنوية، التي تقيمها المدرسة لتنمية مواهب الأولاد. لقد كانت المدرسة حريصة على هذا الأمر، وأنا كنت بدوري حريصا على أن أساعد ابني على الإبداع، وعندما قرر القيام بعمل سيارة خشبية، ليدخل بها مسابقة المدرسة، أسرعت واشتريت له الخشب اللازم لذلك..

-هل تظن أن سيارتي ستفوز يا أبي؟

-هل تسمح لي أنت أن أقوم وأصنع بعض القهوة حتى أفيق؟

-بالتأكيد يا أبي... يمكنك هذا، حتى وإن رفضت أن تعطيني بعض القهوة بدعوى أنني لازلت صغيرًا. ولكني أشعر ببعض الجوع.. هل تظن أنه من الممكن أن تصنع لي أمي بعض الشطائر؟

نظرت إلى السماء لاجئا..

-يا إلهي!

بينما ابني واصل حديثه:

-أبي..

-ماذا تريد؟

-هل تظن أن سيارتي ستفوز؟

-بالتأكيد.. لقد تعبت في صنعها طوال شهر كامل.. لا أظن أن أحدًا اهتم بهذا الموضوع مثلك.

-كلا يا أبي.. المنافسة في الواقع ستكون شديدة، جميع من في صفي اشتروا الخشب منذ فترة ليصنعوا سياراتهم، وبعضهم حصلوا على تصميمات مختلفة من مجلات كبيرة.. بينما أنا...

ولكني لم أسمح بنغمة التباكي على حاله بدعوى أنه مظلوم، فأسرعت أذكره:

-ماذا؟!.. لقد اشتريت أنت أيضا الخشب.. والله يعلم كم كلفني هذا.

فأسرع الماكر يغير من نغمة حديثه..

-أجل.. شكرًا لك يا أبي.. ولكن لم أنقل سيارتي من أي مجلة.

-إذن من أين حصلت على هذا الشكل الجميل؟

-لقد حلمت به.

-لا شك أنك ستفوز. هل لك أن تتركني أعمل قليلًا، قبل أن يحين وقت المدرسة؟

-بالتأكيد يا أبي. ها أنا صامت تماما.

ولكن إدوار لم يصمت أكثر من ثلاثين ثانية، وعاد ليقول:

-أبي... ألم يحن الوقت بعد؟

-كلا.

-أبي... هل تظن أنني سأفوز؟

-بالتأكيد.

-أبي..

وهنا قمت بهدوء، وأحضرت سدادات الآذان، ووضعتها على أذني، بينما إدوار ينظر إليّ مستاءً..

خرج من الحجرة، وأقنع أمه أنه جائع، لتقوم المسكينة من نومها من جديد، لتصنع له بعض الشطائر، وهو ينتهز الفرصة ويحكي معها، ليعبر عن مخاوفه.

* * *

في الواقع.. أنا بدوري لم أستطع العمل.. لقد كنت سعيدًا بابني وبمثابرته طوال الشهر الماضي في العمل.. وأيضا بإبداعه، إذ لم ينقل عمله من أي مصدر، ولكن كان تصميم سيارته من ذهنه هو.. إنه مبتكر حقيقي.. ابتسمت وأنا أتذكر كيف أحاول كل عام تجميع أقساط هذه المدرسة التي تهتم بكل ما ينمي قدرات الطفل.... على الرغم أني حصلت على خصم خمسين بالمائة من المصروفات، نظرًا لأني زبون مهم بأولادي الثمانية، إلا أني كنت دائمًا أتعب حتى أستطيع تدبير الأقساط بالكامل، ناهيك عن بعض الطلبات الفجائية على نمط شراء الأخشاب، والأدوات الأخرى، وخلافه.. ولكن أشكر الله الذي يساعدني على تدبير معيشتي بالكامل.

وأخيرًا.. حان الوقت للذهاب إلى المدرسة. جاء صديق ابني وجاره، معلنًا أنه عليَّ أن أسرع وأخرج سيارتي من الجراج، حتى أقوم بتوصيل ذلك الجمع إلى المدرسة. أسرع إدوار يحمل سيارته الخشبية في سعادة، يساعده صديقه عادل.. وابني يقول له:

-انظر إلى السيارة..

-إنها جميلة جدا يا إدوار... كم كنت أتمنى لو أقدر أن أصنع مثلها.

وهنا تدخلت في الحوار -ويا ليتني ما فعلت- :

-لماذا يا عادل؟... ألم تصنع سيارة؟

-كلا يا عمي... أنا الوحيد الذي لم يصنع شيئًا... لم يستطع أبي أن يشتري الخشب.

وددت لو كنت ابتلعت لساني قبل أن أتكلم، لقد نسيت أن والده لا يستطيع أن يتحمل عبء كهذا. كيف أنسى وأنا قد سعيت لإعفاء ابنه من ثمانين بالمائة من المصروفات نظرًا لظروفه، ولولا تفوق ابنه الشديد ومثابرته، لما رضيت المدرسة بإبقائه.. قلت له:

-في العام القادم ستعمل أحسن سيارة في المدرسة.

ضحك إدوار بعفوية، وقال:

-ولماذا العام القادم.. إنه سيساعدني اليوم.. أليس كذلك يا عادل؟

-بالتأكيد يا إدوار.. هذا يسعدني.

نظرت إلى ابني.. لقد كان أكثر لباقة مني.. وأكثر محبة مني. لم أتكلم طوال الطريق، بينما أولادي ومعهم عادل يتحادثون وموضوع حديثهم هو السيارة بالتأكيد.

ورن في أذني تلك الكلمة التي قالها عادل:

-هل تعلم يا إدوار أني لم أفز في حياتي بأي هدية من أي مسابقة؟

ولم أتمالك نفسي.. فرفعت إلى الله شكري لأنه يسدد كل احتياجاتي، واحتياجات أولادي.. ولم أنس أن أطلب لأجل جاري أن يساعده الله في أموره وأزمته المالية.. وأيضًا لم أدخل في حوار حتى لا أخطئ..

ووصلنا إلى المدرسة وأسرع إدوار وجو ومعهما السيارة التي صممها إدوار، ويتجهان إلى المدرسة بحرص وسعادة.. لقد بدأ اليوم الكبير...

* * *

وقفت أنا وزوجتي ننتظر، وننظر إلى إدوار في ترقب،، وهو يقضم أظافره وينظر إلى لجنة التحكيم لتعلن عن الفائز.. أعلن المدير بعض جوائز الترضية، والتي لم يحصل ابني على أي منها.. ها قد حانت لحظة الجائزة الكبرى.. ويعلن المدير أن ابني هو الفائز...

تخرج من حنجرة ابني صرخة الانتصار والفوز، بينما يعلن المدير أن السبب الأول للفوز هو الابتكار، وإخراج هذا العمل من مخيلة الفتى.. وارتفعت هامتي وأنا أنظر إلى زوجتي فخورًا مختالًا بذلك الولد العبقري.. ويجري هو يسلم على لجنة التحكيم، ويحصل على كأس جميل من الفض،ة لطالما ظل يحلم به لمدة شهر كامل..

-أخيرًا حصلت على حلمك يا بني.

يعانقني ابني ويعانق أمه واخوته.. ويذهب إلى صديقه عادل يتعانقان.. ثم تمتد يده بالكأس.. ويقول لصديقه:

-هذا لك يا صديقي.

ينظر الولد مشدوها..

-لي أنا ؟!!

-لقد ساعدتني اليوم... أليس كذلك؟ لقد حان الوقت لتحصل على جائزة.. أليست جميلة؟

كانت مفاجأة مذهلة لي.. رجعنا إلى البيت.. لم أعد فخورًا ابني لأجل عبقريته.. لقد علمني درسًا في العطاء هو الأول من نوعه.

نظرت إلى عادل وهو يهبط من السيارة وفي يده جزء عزيز على ابني، تنازل عنه عن طيب خاطر.. ورأيت وجه الولد المشرق المنير كما لم أره من قبل..



لماذا انطفأت الشمعة؟



اقترب موعد الامتحانات، لذلك قررت أن أعلن عن حالة الطوارئ في المترل، كفاني ما أضعته من الوقت طوال العام.. بدأت أنظم لنفسي جدولًا، لكي أستطيع أن أنقذ ما يمكن انقاذه.. يا إلهي.. لقد كانت هذه السنة السوداء حاملة الأحداث المؤلمة عليَّ وعلى أسرتي، والآن يجب أن أتناسى تلك الأحداث حتى يمر ذلك العام على خير.

وأنا أستعد لبداية الاستذكار، حدث شيء لم أضعه في تخطيطي.. لقد انقطع التيار الكهربائي.. كما لو كان في تحالف مع بقية الأحداث التي مررنا بها..

عم الظلام.. وفي استسلام للواقع، أحضرت شمعة وأشعلتها، لعلي أتمكن من الاستذكار على ضوئها.. وضعت الشمعة على المكتب، وقربت منها كتابي لكي أتمكن من القراءة.. لكني لم أقرأ، فقد وجدت نفسي أحدق في تلك الشمعة.

لقد كانت تحترق ببطء.. منظرها كئيب.. أعادني للوراء، لأتذكر أحداثًا قديمة عمرها سنوات.. كشريط سينمائي في مخيلتي، رأيته آلاف المرات، ومع ذلك ذهني لا يمل من تكراره.. بطل الفيلم هو أبي.. المشهد الأول كنت فيه صغيرًا، أراه كل يوم يخرج في الصباح، لا أعلم أين يذهب ولماذا، ثم يأتي إلينا بعد الظهر ،فيظهر كل شوق ولهفة لرؤيتها.. كنت وإخوتي ننتظر الساعة حتى تدق الثانية، ثم تبدأ آذاننا المتلهفة تُصغي إلى الباب والأصوات التي وراءه، حتى نسمع صوت أقدام آتية من الخارج، مع صوت نحنحة خفيفة، تنطلق أصواتنا الصغيرة في فرح معلنة قدومه إلينا. وعندما يفتح الباب، نستقبله ملكًا متوجًا على أسرتنا الصغيرة، ثم نجلس جميعًا على مائدة الغذاء في محبة. كانت مملكتنا الصغيرة تضم خمسة أفراد: ملكها أبي، ونائبها أمي، ثم ثلاث أطفال متقاربين في العمر.

أما الملك.. فكان محبًا عطوفًا شديد الهدوء والصبر معنا.. كان دائم الابتسامة، حريصا على تلبية كافة احتياجاتنا، لذلك نشأنا جميعا، نستمد من تفاؤله الدائم تفاؤلنا وثقتنا في أن كل شيء في حياتنا سيؤول إلى الأفضل.

أرى الشمعة وقد احترق جزء منها لكي تضئ لنا، فأعود لأرى مشهدًا آخر.. نحن جالسون على الفراش، نلعب لعبة

جديدة، وشمعتنا المضيئة (أبي) جالس معنا، يلعب في سعادة ومرح، يضع في قلوبنا ابتسامة رائعة ترتسم على شفاة كل واحد منا.. استطاع أن يجعل منا أصدقاءً له، ومن بعضنا أصدقاء لبعض، وصارت أمي وإخوتي أقرب الأصدقاء إلى قلبي.

ويمر المشهد.. ولا زالت عيناي تحدقان في الشمعة، والشمعة تحترق.. ليأتي في مخيلتي مشهدًا آخرًا.. أراه -ذلك الملك - يجلس بجانب إخوتي يستذكر لهم دروسهم، ثم يجلس بجانبي يحثني على الاستذكار. لقد كان يعرف إنني لم أكن مقبلًا على التعليم مثل إخوتي.. ولم أكن متفوقًا مثلهم، لكنه في صبر تحمل عدم تفوقي، وراح يحثني على الاستذكار، ويشجعني كما يشجع اخوتي.

أتذكر وهو يأتي إلينا عقب كل نتيجة، ويزف إلينا بشرى نجاح واحدة من أخواتي.. كان يهلل من الفرح، ويشكر ويمجد الله.. هو أول من علمنا أن نشكر إلهنا على عطاياه.. وكيف نستسلم بالإيمان لله عند حدوث أمر محزن.. لم يعظنا مرة واحدة في حياته، ولكن حياته كانت أكبر عظة لنا.

وصلت إلى الثانوية العامة، (توجيهي) وتعثرت سنتين، وهو ينظر إليّ بحزن.. تلك النظرة كانت تؤلمني وتجرح قلبي.. أرى ذلك الملك العظيم حزينا لأجلي، ولكنه لم يشكك في قدرتي

على التحصيل، بل أعطاني ثقة كنت أفتقدها في نفسي.. فأعطاني الدافع للنجاح.. أن أراه سعيدًا.

كنت أنظر إليه خلسة وهو في المخدع، فأسمعه يضع مستقبلي أمام الله، ويطلب منه أن يستلم حياتي ومستقبلي. كنت أرى من خلال صلاته دموعه تتعانق مع إيمانه.. لم أتذكر أبدًا أنه قال لي كلمة سيئة، بل لم ينصحني حتى بالاستذكار.. ثقة مطلقة وضعها في جعلت مني رجلًا.. كم كانت فرحته عظيمة وهو يسمع نتيجتي وارتفاع مستواي عن مستوى الأعوام السابقة بمئة درجة كاملة.

أرى الشمعة وهي تعطي نورًا، لكنها في سبيل هذا تحترق هي.. لازالت المشاهد تتوالى.. ها هي أختي الكبرى مُقبلة على الزواج وستدخل حياة جديدة.. كان سعيدًا على الرغم من كل الأعباء،مؤمنًا أن الله يدبر كل الاحتياجات، لذلك لم يتذمر مرة واحدة.. كانت فرحته كبيرة وهو يرى ابنته الكبرى في فستان الفرح.. وقتها قال: " لقد أتممت ثلث رسالتي، وليساعدني الله على أن أكمل ما تبقى".

واكتملت فرحته وهو يرى حفيده الأول، وهو ينظر إلينا – أختي وأنا– في شوق بالغ لكي يتم رسالته معنا أيضًا.

قاربت كلمة النهاية على ذلك الشريط السينمائي بمخيلتي.. لم أتمالك نفسي فبكيت، وأنا أتذكر ذلك المشهد الأخير الذي

فيه رأيت شمعتنا تخبو.. ولكن المشهد توقف على صوت والدتي وهي تناديني وتقول لي: "ماذا جرى لك؟ لقد انطفأت الشمعة.. هل سنبقى هكذا في ظلام؟".

نظرت.. ورأيت الشمعة التي كانت تضيء مترلنا احترقت بالكامل.. أسرعت أمسح دموعي..

الآن عليّ أن أضيء شمعة جديدة.



الآن أستطيع النوم



لا أستطيع النوم.. لا تزال مؤخرتي تؤلمني بشدة، فقد ضربتني أمي كثيرًا. لا تزال عيناي تترل منهما الدموع على الرغم مني.. وأوامر أمي الصارمة أن أصمت جعلتني أكتم البكاء الصارخ الذي يريد أن ينبعث من أعماقي، حتى لا تسترسل في الضرب على مؤخرتي، طالما أنا لا زلت أبكي.. لقد قالت عني عبارة لم أفهمها.. قالت إني مخربة وشقية.. لم أعرف معنى هذه الكلمة، كل ما أذكره هو أني أرسم.. ألون.. استمعت قليلًا. هل نام أخي الأكبر؟،كلا.. إنه لا يزال يتقلب على الفراش.. لابد أن مؤخرته هي الأخرى لا تزال تؤلمه.. ولكنه بدوره لا يجرؤ على البكاء حتى لا يأتي أبي أو أمي، لنجد مزيدًا من التعنيف، والتوبيخ، و تلك العبارات الصعبة التي لم أفهمها.. ربما عندما أكبر أجد لها معنى.

يقولون إن عمري سنتان، وربما أقل ببضعة أيام، إذ سيحتفلون في منتصف الشهر القادم بعيد ميلادي، ولست أدري إن كان هذا العمر يكفي لأن أعمل الصواب أو لا..

ولكني كنت أعرف شيئًا واحدًا.. أني أحب ما كنت أعمل، وكذلك أخي الأكبر، الذي سيحتفل غدًا بعيد الربيع في مدرسته، فهو في سنة أولى روضة. هو كان يحفظ بعض الأناشيد غير المفهومة، ويرددها علي، وفجأة قال لي:

-تعالي نلون ورود الربيع..

وأخرج كتاب رسومات مليئ ببعض الخطوط الغريبة، وقال عنها إنها ورود.. لم أعرف ما هي الورود، ولكنه راح يستخدم ألوانا مختلفة، ويملأ فراغات تلك الورود،

وحاولت أن أفعل مثله، فبدا لي ذلك سخيفا..

لكن الأقلام لونها جميل! وضعت لونًا على يدي، ورحت ألون.. بدا لي شكل يدي جميل. وأخي، عندما رأى ذلك، راح يضحك، ليترك هو أيضا بدوره الأوراق، وبدأنا نرسم كل أطرافنا بسعادة ومرح.

كان كل ما نفعله جميلًا؛ ولكن لقد قالت أمي أننا قمنا بتوسيخ أنفسنا والحفلة في الصباح..

* * *

تذكرت منظر يدي وقدمي، ورحت أضحك، وأنا أتذكر شكل أمي وهي ترى هذا الأمر، فتنتابها عصبيتها المعتادة،

لتأخذني على الحمام وهي تصرخ، وتحك في جسدي.. الألوان رفضت أن تفارق جسدي، بينما كنت أبكي، وأمي تصرخ، وأبي يحاول تهدئتها.. وأخي ينتظر دوره بخوف ورعب، وهي تنظر إليه وتتوعده. جسدي كان يؤلمني بسبب ذلك الدعك العنيف والعصبي الذي تدعكه أمي حتى تخرج الألوان من جسدي، ومن خارج الحمام يسأل أبي:

-هل اختفت الألوان؟

فترد أمي:

-بصعوبة.. لا يزال تحت العينين وفي خدها ألوان لا تريد أن تترك وجهها.

-دعيني أحاول أنا.

ولكن أمي ترفض بعصبية، وتستمر المأساة وقتا طويلًا، حتى شعرت بسخونة كبيرة في جسدي، وبعد فترة بدأت تفعل نفس الأمر مع أخي.. على كل حال كان الأمر محتملًا حتى اكتشفت أمي شيئًا أخرًا.. لقد رأت تلك الرسومات التي رسمتها أنا وأخي على حائط مترلنا، فكانت المأساة الحقيقية..

* * *

اعتادت أمي -هي وأبي- أن يرافقانا -أنا وأخي- إلى السرير.. يضعان الغطاء علينا، ويعطيانا قبلة قبل النوم. وقد اعتدت ألا أنام إلا بعد هذه القبلة الجميلة من أمي ومن أبي. ولكن أبي وأمي غاضبان اليوم، وتركانا في الفراش بدون قبلة. لا يأتيني النوم.. وها أخي بدوره يتقلب في الفراش، ولا يجرؤ على محادثتي، ولكني أعرف أنه لا ينام بدون تلك القبلة المسائية من والدي.

لقد عاقبانا بالضرب، ألا يكفي هذا؟ لا أستطيع النوم.. هل نامت أمي.. هل نام أبي؟.. أخذت أسترق السمع.. كلا لم يناما.. التلفزيون لا يزال يصدر أصواته.. لقد تأخرا اليوم في النوم.

سمعت صوت أمي تأتي خلسة هي وأبي إلى الغرفة.. تسأل أخي:

-هل نمت؟

فيصدر صوتًا يدل على استيقاظه، فتقول لأبي بصوت خفيض:

-على ما يبدو أنهما لا يزالان مستيقظين.. لنسهر فترة أخرى.

-متى يناماني؟

قالها أبي بضجر.. أكان يجب على أخي أن يصدر صوتًا، ويظهر أنه مستيقظ؟! إنهما لن يستطيعا النوم بدون أن يعطيانا تلك القبلة المعتادة.. الآن عليهما السهر من جديد، حتى يتأكدا من أننا نمنا، فيعطيانا تلك القبلة.. أنا أعلم أنهما لن يعطياها لنا ونحن مستيقظان حتى يقولا لنا أنهما في حالة (زعل) منا.

أخذت أتحسس مؤخرتي وأنا أتذكر ما فعلته أمي بي.. كان يوما حافلا.. وها أنا الآن في فراشي دون أن أنال قبلة منها.. هل هذا عدل؟

* * *

من جديد أمي وأبي يدخلان الغرفة.. يسألانا إذا كنا مستيقظين.. لم يتكلم أحد منا.. تسارع أمي وتغطي كل واحد فينا.. وبهدوء ينال كل واحد منا قبلة جميلة من أمي وقبلة جميلة من أبي.. ويخرجان.. التلفزيون يغلق.. ويذهبان للنوم.. أستمع إلى أخي.. لقد وضع رأسه على الوسادة في هدوء.. الآن فقط سوف يتمكن من النوم.. أما أنا فأخذت دميتي في حضني.. فأنا أيضا الآن فقط أستطيع أن أتناسى مؤخرتي التي تؤلمني.. وأستطيع النوم.

جميلة

كان يجلس بجوار جميلة، كما اعتاد كل يوم.. وكانت هي هادئة، تنظر إليه في محبة.. لقد أحبته كما أحبها.. يشعر بذلك ويسعد به.. ويحس أن ذلك الحب يشبعه.. يطفئ ظمأه.. أسعد أوقاته عندما يجلس بجانبها يربت على جسدها الناعم، ويتكلم معها، ويراها وهي تصغي له دون أن تُعلق على ما يقول. دائمًا تتركه يعبر لها عما يجيش بداخله من مشاعر، دون أن تشعر بالملل، أو تعلن عن استيائها منه.

لقد وجد في جميلة نعم الصديقة، التي تستمع إليه وتؤنس وحدته.. تعيش معه منذ أكثر من خمس سنوات، لا يطمئن لأحد غيرها، تستطيع أن تفهم كلامه الذي لا يمكن أن يهم أحدًا سواه.. كما أنها تشاركه اهتماماته -أو هو كان يظن ذلك.. لذلك كانت جديرة بحق أن تكون صديقته الوحيدة.

في ذلك اليوم، كان يشعر بأنه ليس على ما يرام.. أنه مخنوق.. الدموع حبيسة في عينيه.. لقد مر بكثير من الأزمات

في عمله، وخسر كثيرًا من صداقاته في الآونة الأخيرة.. لذلك كان يكلمها وبداخله شعور بالإحباط الشديد، بينما يداه تعبثان في شعرها الجميل، وهي مستسلمة له في تلذذ، وتنظر إليه في عذوبة ودلال.

كان يقول لها:

- والآن.. ما رأيك يا جميلة؟ ألا ترين أنني فعلت حسنًا عندما قررت عدم الخروج اليوم؟

- ....

- لقد مللت هؤلاء الناس.. أخرج معهم كل مساء.. الحديث ذاته، والجلسة ذاتها، ويجب أن أستمع وأشارك.. لقد سئمت من كل هذا.. إنه ضياع للوقت.

- ....

- كما أنهم لا يفهمونني

ويبتسم في أسى ويستطرد:

- أو ربما أنا الذي لم أعتد على التعبير بمشاعري لأحد سواكِ

- ....

- أجل هذه هي حقيقتي.. لم أعد أستطيع أن أعبر لأحد عما أشعر به سواء كان هذا الشعور حزنًا أو فرحًا.. لماذا؟.. لا أعرف.. هل تعرفين ياجميلة؟

- ....

- ربما لأنني فقدت ثقتي في الآخرين، فالجميع لا يسعون إليك إلا إذا أرادوا منك شيئًا.. إنهم يريدون مني أن أدفع ثمن محبتهم وصداقتهم.. ولا يعرفون أن الصداقة تفقد قيمتها إذا كانت بمقابل مادي.. بينما أنتِ.. تعلمين أني غني ولا تطلبين شيئًا.. تعطيني بلا مقابل.. أرأيت أنك أفضل صديقة على الإطلاق يا جميلة؟

نظرت إليه جميلة بعيونها الناعسة.. وفي تثاقل قامت ووضعت رأسها على كف يده، تمسح وجهها معبرة عن محبتها له، بينما هو في انفعال ظاهر راح يكمل حديثه:

- إنك الوحيدة التي تعرفين مشاكلي وعيوبي دون أن تتفوهي بكلمة واحدة.. أما هم.. لماذا يا جميلة؟.. لماذا لا يفكر الإنسان إلا في عيوب الآخرين ولا ينظر إلى نفسه أبدًا؟

تنظر إليه.. ولكنها لا ترد.. وهو بدوره ينظر إليها ولا تزال يداه تعبثان بوجهها.. ويفترض أنها ردت عليه فيقول:

- أنا؟.. نعم.. أنا أعرف عيوبي جيدًا.. أعرفها لأنني أبقى معك وأتحدث إليك، فأنتِ مرآتي التي أرى نفسي فيها.. وعندما أحدثك أتعرف على عيوبي أكثر.. وإذا حدثتك أثق في أنكِ لن تُشهري بي لأحد، ولن تذليني يوما بها..

- ....

- جعلتِني أتعود على الصمت، لذلك ثقل لساني، فلم يعد طليقًا يتكلم ويتكلم، فأجد نفسي صامتًا في مجالس الآخرين

- ....

- هم يعتقدونني خبيثًا، احتفظ بما أنوي فعله لنفسي.. هم يعتقدون أنني أَعد نفسي للمعارك والمقالب في صمتي هذا.. ولا يعرفون أن صمتي هذا عجز.. عجز عن مواجهتهم.. فأنا لا أستطيع أن أتكلم، فكيف لي بمواجهتهم.. لا أعرف.. هل لكِ أن تخبريني؟

- ....

- ألا تخبريني يا جميلة؟

- ....

- أتبخلين بالرد وأنت صديقيتي الوحيدة؟.. أريد أن أعرف كيف أتغلب على فشلي.. على وحدتي.. على عيوبي التي أرفضها..

- ....

- تكلمي.. لقد فقدت سلامي، وفارقني نومي وهدوئي المصطنع.. لقد بدأ يخرج من هذا الهدوء حمم بركان ثائر.. ألا تعطيني بعض الراحة؟

- ....

أخذ ينظر إلى صديقته في توسل.. ولكنها رفضت أن تتكلم.. وكيف لها أن تعطي ما لا تملكه.. لم يستطع أن يصمد.. لقد واجه الكثير، ولكنه الآن لا يستطيع، وخاصة أن أحدًا لا يراه غير جميلة.. وجميلة لا يمكن أن تتكلم.. أنها لم تتكلم أبدًا.. فترك نفسه للبكاء، وأخذ يربت على ظهر جميلة، بينما عيونه تدمع.

حمل صديقته جميلة ووضعها على المنضدة، وأخذ يتسلى في إطعامها.. وبينما هي تهز ذيلها سرورًا وفرحًا، كانت عيونه هو لا تزال تدمع.



تستطيع أن تغادر.. الله معك



كان يشعر بكثير من التوتر.. على الرغم من ثقته بنفسه، التي تكاد تصل إلى حد الغرور، وعلى الرغم من إمكانياته التي قاربت من الكمال في تصرفاته، إلا أنه كان يخشى ألا يحصل على تلك الوظيفة، التي طالما حلم بمثلها.. كان يسير في الشارع، ويشرب العصير لكي يرطب على نفسه، إذ كان الجو شديد الحرارة.. وأيضا لكي يخفف من توتره الداخلي..

وفجأة.. تقف أمامه سيارة أجنبية فاخرة وحديثة.. وصوت فتاة شابة تحدثه:

-من فضلك سيدي.. هل تتحدث الإنجليزية؟

نظر إليها.. ورد بإنجليزية سليمة..

-بالتأكيد آنستي.. كيف أستطيع أن أساعدك؟

كان قد انتهى من العصير، وألقى بالعلبة الورقية على الأرض، والتفت إليها باهتمام.. نظرت الفتاة إليه ثم إلى علبة العصير، وقالت:

-أريد أن أعرف كيف أذهب إلى فندق "جي سي".. هل تعرفه؟

-بالتأكيد سيدتي.

وأخذ يصف لها أبسط الطرق للوصول إلى الفندق.. وأصغت له بانتباه، ثم شكرته. وبعد أن أدارت سيارتها في اتجاه الفندق قالت:

-احترس سيدي .. لقد وقعت منك علبة العصير.

ابتسم وقال:

-لقد انتهت.. إنها فارغة.

نظرت إلى العلبة الملقاة و لم تستسلم؛ بل قالت:

-ألا ترى أنها قذارة أن ترمي المهملات في الشارع وصندوق القمامة بالقرب منك، لا يتجاوز عدة أمتار؟!!

فقال لها:

-سيدتي.. إنني لست قذرا.. لقد تلقيت دراستي في أوروبا، وما كنت أجرؤ أن أفعل ذلك في أي بلد منها.. ولكنك ترين أن القذارة تملأ المكان.. نحن بلد متخلف سيدتي.. ومن الطبيعي بالنسبة لهذا المكان أن أُلقي المهملات على

الأرض.. هذا الفعل طبيعي جدًا في هذا المكان.. ليتك تنظرين حولك لترين كم المهلات الملقاة في الأرض، فتفهمين قصدي.

وابتسم بسخرية وقال:

-إنني إذا فعلت غير ذلك يمكن أن يتهمني الناس بالجنون!!

لوت الفتاة شفتيها بعدم اقتناع، وقالت بسرعة:

-شكرا لأنك ساعدتني لمعرفة الطريق.. يندر أن أجد هنا من هو يتكلم الإنجليزية بطلاقة مثلك.. شكرا لك.

-ولك الشكر سيدتي.

أدارت محرك سيارتها، وسرعان ما تحركت. أما هو، فكان يتابعها بعينيه.. ويقول لنفسه: "إنها تذهب بالقرب من المكان الذي أريد أن أذهب إليه".

ولام الفتى نفسه أن خجل أن يطلب منها أن تأخذه معها رغم أن طريقه نفس طريقها. وسرعان ما تناسى هذا الأمر، وراح يسير في فخر، وهو يفكر في مدحها للغته الإنجليزية الراقية، وهو يتذكر أن واحد من شروط الوظيفة التي هو يريد الحصول إليها هو إتقان اللغة الإنجليزية، فزادت خطواته ثباتًا.

* * *

لم يكن المكان مزدحمًا، فهذه الوظيفة الشاغرة لها متطلبات صعبة، يندر أن تكون موجودة في عدد كبير من الناس. ينتظر دوره في الدخول للمقابلة الشخصية، وهو يتطلع إلى المتقدمين للوظيفة، ويحاول أن يعقد مقارنة بينه وبينهم، ويستمع إلى أحاديثهم مع بعضهم، دون أن يحاول الدخول في الحديث، ولكنه كان يحاول أن يقيِّمهم.. وكلما تقدم الوقت، ازدادت ثقته في نفسه وأنه سيحصل على تلك الوظيفة.

كان يهمه كثيرًا الحصول على الوظيفة، فهو راجع من إنجلترا من أسابيع بسيطة، بعد دراسة شاقة حتى حصل على ماجستير في برمجة الكمبيوتر. لقد تعب كثيرًا، وصام كثيرًا، وعمل في كل الأعمال الحقيرة لكي يوفر ثمن دراسته، لكي يستطيع أن يحصل على تلك الشهادة. وعندما بدأ يجني ثمار هذه الشهادة بأن يعمل في مكان محترم في انجلترا بأجر خرافي، استغنوا عنه بسبب أحداث سبتمبر، التي أخافت كل أبناء الغرب من العرب، فاضطر للرجوع، ولولا تلك الظروف الصعبة لما رجع إلى بلده، بل لكان استمر في إنجلترا يعمل، إذ أن في الخارج يقدرون كثيرًا هذه التخصصات النادرة، على خلاف بلاده العربية التي كان دائمًا يتهمها بالتخلف. ولكنه ها هو يرجع مضطرًا وناقمًا، ليعمل ستة أشهر في قهوة إنترنت، حتى قرأ هذا الإعلان عن تلك الشركة الأجنبية التي تعيد له طموحه في الحصول على مستقبل جميل وهو في بلده.. ولكن

شروط هذه الشركة غاية في القسوة، وكان ينظر إلى الخارجين من المقابلة الشخصية، فيقرأ على وجوههم خيبة الأمل، فلا يستطيع أن يداري فرحته، إذ أن هناك أمل في أن ينجح هو..

لا يظن أن أحد المتقدمين قد حصل على شهادة تعادل شهادته، ولا يظن أن أحدًا يملك خبرته في مجال البرمجة، وأيضا لا يظن أن أحدًا له كفاءته اللغوية الممتازة، ومظهره الأنيق – على الرغم من ضيق ذات اليد– ووسامته وشبابه وحُسن حديثه.. ماذا يعوزّه لكي ينجح؟

يعتدل في جلسته بثقة وهو يرى الشباب يدخل مبتسمًا، ويخرج محمر الوجه وعلامات الإخفاق بادية عليه.. يبدو أن الوظيفة ستكون من نصيبه.

* * *

ويسمع اسمه، ليقف سريعًا ويعدل من هندامه.. ويحمل أوراقه، ويدخل في منتهى الجدية.. ليجد ثلاثة رجال كبار في السن يجلسون أمامه في صالون عادي.. يقول له أصغرهم بلغة إنجليزية:

-أهلًا وسهلًا سيدي.. من فضلك تفضل بالجلوس.

فيرد بلغة سليمة:

-أهلًا سيدي.. سعيد بمقابلتكم.

ويجلس..

ويبدأ الامتحان العسير في أدق تفاصيل المهنة.. الرجال لا يتكلمون إلا باللغة الإنجليزية، وهو يرد ويحاججهم.. إنه يعرف كل شيء ويتقن كل شيء.. يشعر صاحبنا أنه على وشك الحصول على الوظيفة.. الوجوه مرتاحة، والأسئلة بدأت تتحول إلى أسئلة حميمة.. ويشعر أن الرجال الثلاثة قد أصبحوا يستأنسون له.. لقد طالت المقابلة جدًا عن أي مقابلة سابقة، حتى أن أحد الرجال الثلاثة طلب النسكافيه، لتأتي فتاة شابة وهي تحمل أقداح النسكافيه للجميع. ويلتفت صاحبنا إليها، ليفاجأ أنها هي نفسها الفتاة التي سألته على الفندق.. إنها كانت تريد هذه الشركة إذًا.. يبدوا إنها ابنة أحد هؤلاء الرجال.. ازدادت ثقته بنفسه وقال لها:

-مرحبا آنستي.. هل تتذكريني؟

نظرت إليه وقالت:

-أعتقد أننا تقابلنا من قبل.. ألست من سألته على الفندق؟

-أجل.

-أهلًا بك.

وجلست لتستمع إلى بقية الحوار، وصاحبنا أخذ نفسًا عميقًا، وقد أحس أن الوظيفة في جيبه.. أخيرًا سوف تبتسم له الأيام بعد طول عناء

* * *

وانتهت المقابلة.. ونظر الرجال الثلاث إلى بعضهم البعض. وهم يعبثون بأوراق صاحبنا وقال المتحدث:

-على ما يبدو سيدي أنك أفضل من تقدم إلى تلك الوظيفة.. نحن في العادة نرفض غير اللائق تلقائيًا دون انتظار، أما الذي لا نرفضه نأخذ كل أوراقه كي ندرسها ونقارنها في التصفية النهائية لنختار الأفضل.. وأنا إلى الآن أظن أنك أفضل الكل على وجه الإطلاق، ولكني لابد أن أتقابل مع بقية المنتظرين، وإن كنت أستطيع أن أعدك بالوظيفة.

اتسعت ابتسامة صاحبنا وهو يقول له:

-هذا شرف عظيم لي أن أكون ضمن فريق العمل معكم.

لكن فجأة قالت الفتاة:

-لحظة سيدي.. أنا لم أقل كلمتي بعد.. وأنا صاحبة الشركة، ويهمني جدًا من يعمل معي.

نظر مبهوتًا وهو يرى تلك الفتاة الصغيرة تعلن أنها صاحبة هذا المشروع الضخم.. ولم يتكلم منتظرًا كلامها .. أما هي فقالت بسرعة:

-سيدي.. على الرغم أننا نهتم كثيرًا بالخبرة والعلم واللغة، ولكن هؤلاء الخبراء لم يروا ما رأيته أنا..

أكملت:

- مع كل خبرتك التي تصل إلى حد الكمال.. لا أستطيع أبدًا أن أعين في المنصب الذي أريد رجلًا مثلك.. تستطيع أن تغادر الآن..

الرجل الفلسطيني وزوجته الإسرائيلية

في سيارته الشيروكي الضخمة، كان يجوب شوارع بيت لحم هو وزوجته، وفي الكرسي الخلفي كان يجلس طفلهما الصغير إياد، الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره. وكان أبو إياد يطرق البيوت بصورة عشوائية، غير مميز أي بيت عن الآخر، وكان يسأل سؤاله المعهود إلى سيدة الدار.

-عفوا سيدتي.. هل عندكم طحين؟

فتنظر إليه السيدة بلهفة وتقول:

-كلا يا أبو إياد.. هل جئت ببعض الطحين لأسرتنا؟.. لقد نفذ الطحين من البيت تمامًا.

-لحظة واحدة يا سيدتي.

ويسرع أبو إياد إلى سيارته، ويتجه إلى الباب الخلفي، ليخرج كيسًا من الطحين، ويحمله إلى السيدة الملهوفة ويعطيه

لها.. ثم يرجع إلى سيارته، ترافقه دعوات السيدة، التي وجدت حاجتها وحاجة أسرتها لأيام قليلة.

* * *

بيت لحم.. ذلك المكان الذي أصبح لا يحمل معناه، بعد الظروف القاسية التي يواجهها المكان من الحصار الإسرائيلي لأهله، حتى صار كما لو كان فيه مجاعة.. ذلك المكان.. الذي معنى اسمه بيت الخبز، لم يعد فيه أي شيء غير الخراب والخوف الرهيب من الغد القريب.

أما أبو إياد هذا، فقد كان لوقت قريب أحد التجار الأغنياء جدًا في فلسطين العربية، وكان يعيش في غزة، ومتزوج من سيدة عربية ناصرية، ولها جواز سفر إسرائيلي، نتيجة لمعيشتها في الجزء الذي يخص إسرائيل من فلسطين. وعندما قامت انتفاضة الأقصى، واجه أبو إياد -مثله مثل غيره من الشعب- كل المحن وصعوبة العيش والتجارة.. كان يؤلمه أن في كل بيت في بلدته ميتًا، شابًا أو طفلًا، بسبب أعمال العنف الإسرائيلي، أو الأعمال الانتحارية من الشباب الفلسطيني، يعبرون عن رغبتهم في تحرير بلادهم.

لم يكن يؤيد فكرة أن يفجر شباب في عمر الزهور أنفسهم في سبيل أن يقتلوا جنديا أو اثنين من جنود الاحتلال.. ولكنه

أيضا كان مؤمنًا بقضيته تمام الإيمان، وكان يريد لها أن تُحل بأسرع وقت.. وكان يحزن كثيرًا لأجل البيوت التي تنفذ منها موارد الطعام، فكان يكرس نفسه ووقته في توفير الطحين، والاحتياجات الأخرى الضرورية للبيوت.. فكر أنه يمكن أن يخدم بلدته بهذا الأسلوب، إذ يذهب مرة إلى الأردن، ومرة إلى مصر ليجمع التبرعات، وليشترى تلك ، ويأتي بها إلى بلاده، ويجوب القرى والمدن، محاولًا تقديم المساعدات.

* * *

عندما قيل له إن بيت لحم تعاني من المجاعة، وجه سيارته إليها بسرعة، ومعه ما يستطيع حمله من الطعام والمواد التموينية. وعندما انتهى من توزيع بضاعته على البيوت المحتاجة، نظر إلى الخلف، ليجد سيارته بها مزيد من الأشياء التي يمكن أن توزع، فنظر إلى زوجته وفكر قليلًا، ثم قال:

- لنتجه إلى القدس.

قالها لزوجته، التي نظرت إليه في خوف، وقالت له:

-هذا خطر كبير يا أبو إياد!

-لا تخافي.. سندخل ونخرج بسرعة.. لابد أنه يوجد كثيرون يحتاجون إلى الخبز.

-الله يستر.

* * *

اتجه الرجل إلى طريق القدس، يقود سيارته وهو يتحدث مع زوجته، بينما ينبعث من جهاز التسجيل صوت فيروز وهي تغني أغنيتها الشهيرة (القدس لنا).. كان الطفل إياد يلهو بلعبة، كان قد ابتاعها من مصر في زيارته الأخيرة.. وسارت السيارة في طريقها إلى القدس، حتى أوقفتهم دورية من البوليس الإسرائيلي..

تنزل الزوجة من السيارة. يتحدث لها الجندي بغلظة، وهو يعبث ببندقية آلية

-أوراقك..

تخرج السيدة أوراقها وجوازها الإسرائيلي.. فينظر الرجل إلى الجواز دون أن تتبدل ملامح الغضب، ويبدو أنه يسمع صوت فيروز من داخل السيارة، فيسترسل:

-أوراق الرجل الذي معك..

-هذا زوجي.. وهذا طفلنا.

يتجه بالنظر إليه .. ثم يقول له:

-انزل من السيارة.

يهبط أبو إياد من السيارة.. ويتجه إلى سيارة الدورية هو وزوجته، فيقول له الشرطي:

-أوراقك..

-تفضل.

-لماذا أنت هنا؟

- هذه زوجتي، ونحن في زيارة لأقربائنا في بيت لحم.

-زيارة أم توزعون طعام؟

-نوزع طعام للمحتاج.. هل هناك قانون يمنع هذا؟

نظر الرجل وقال:

- أنت إرهابي.. أليس كذلك؟.. تعال معنا

-أنا لم أحمل سلاحا في حياتي.. أنا أقدم معونة للسيدات المحتاجة، والتي مات شبابها وأقاربهم.

- إذًا أنت تساعد هؤلاء الإرهابيين، وأنت فلسطيني، وجئت إلى أرض لا يحق لك الدخول فيها و..

* * *

كان إياد لا يزال مشغولًا باللعب، عندما سمع ذلك الصوت الرهيب.. صوت مدفع رشاش ينطلق.. وبعض الرصاص

يصيب جسم السيارة، فيتجه المسكين بنظرة إلى ناحية الصوت.. ليجد والده ووالدته وهم غارقين في الدماء، فيصرخ في ألم مرير.

- أبي ... أمي!

وكانت فيروز تغني..

"الطفل في المغارة وأمه مريم وجهان يبكيان".

تمثال الشرفة



الأستاذ سعيد -كعادته كل صباح- يحمل السلة التي يضع فيها أغراض المترل، والتي يشتريها من السوق يوميًا. عندما وصل إلي الشارع، سمع صوت فريد الأطرش عاليًا، منبعثا من شرفة مترله. نظر إلي تلك الشرفة، ليجده لا يزال جالسًا مكانه، وناظرًا إليه في تحدٍ شديد. لمس في نظراته أيضا كراهية شديدة..

إنه ابنه الوحيد، سامي، الذي أصبح هذا المكان هو مكانه المفضل، لا يتركه طوال اليوم، لا يفعل شيئا سوى النظر ببلاهة إلي المارة، والاستماع من خلال جهاز تسجيل إلي أغاني فريد الأطرش، حتى ظن الجميع أن الأستاذ سعيد وضع تمثالا في شرفته لتزيينها.

أخفض الأستاذ سعيد عينيه الضعيفتين بفعل السنين، والحسرة والألم يعتصرانه، إذ أنه لم يكن ينتظر أو يريد هذا

المصير لابنه.. وببطء يتحرك، متجهًا إلي السوق، تاركا وراءه صوت فريد الأطرش عاليا.

***

والأستاذ سعيد رجل بالمعاش، تخطى الستين من عمره بعدة سنوات، وكان قبلًا موظفًا كبيرا بالتربية والتعليم، ومن قبلها كان معلمًا ناجحا، كثيرًا ما يفتخر أنه ربى العديد من الأجيال، الذين احتلوا مكانة كبيرة في المجتمع. له من الأولاد أربعة. ثلاث بنات كبار كن ناجحات في دراستهم، والآن صرن ناجحات في بيوتهن، إذ تزوجن جميعا. وللأسف.. لم يعدن يزرن والدهن، الأستاذ سعيد، إلا نادرًا، متعللات بشتى أنواع الحجج. ولكن النتيجة النهائية أنهن اختفين تمامًا من حياته، وكلما زار هو أو زوجته إحداهن، أحس أنه غريب في بيت ابنته، فلا يجد من الكلام ما يقوله، فينسحب إلى بيته، مكتفيًا بالراحة لإحساسه بأن ابنته مستقرة وتشعر بالسعادة مع زوجها.

هذا عن البنات، ولكن من الذكور له ابن وحيد، واسمه سامي – تمثال الشرفة – والذي صار نقطة ضعفه الوحيدة، أو بالأحرى شوكته الأساسية في الحياة.

يتجه الأستاذ سعيد إلى الخباز.. يشتري منه الخبز وهو لا يزال شاردًا في أفكاره متسائلا لماذا أصبح ابنه هكذا.. هو لم

يقصر أبدا معه، ولا يظن أن ابنه من المتخلفين عقليا، بل هو طبيعي تماما، وقد وجد من العناية ما لم يجده الكثير من أترابه، فالأستاذ سعيد واحد من أبناء صعيد مصر، ويهتم كثيرًا أن يكون لديه الولد الذي يحمل اسمه. وعندما جاء الولد، كانت سعادته كبيرة، حتى أنه أهمل اهتمامه بالبنات الثلاث، وصب اهتمامه علي الولد، مما أدي إلى حنق البنات، وعدم محبتهم للولد أو للبيت عامة.

غاب عن الأستاذ سعيد إن الولد فطن لهذا الاهتمام الزائد، فشعر أنه إنسان متميز، فتمرد وتدلل كثيرا حتى تلبى طلباته. في البداية كانت طلباته صغيرة وعادية كأي طفل، ولكن بدأت تزداد تدريجيا، والوالدان رغم هذا يجتهدان ليلبيا كل طلب يطلبه على حساب أي شيء.

كانا يخافان على الولد من أشياء ساذجة وبسيطة، ولكنها كافية أن تكبله... يخافان عليه من الشمس، فالشمس في صعيد مصر حامية، فبالتأكيد سوف تصيبه الشمس بضربة قاسية قاضية، قد تقضي عليه بالموت، وهو الولد [الحيلة] على ثلاث بنات!

من حسن الحظ أن مدرسته الابتدائية أمام البيت، فلن يتعرض للشمس، وإلا لكان قد حرم من التعليم!

هما يخافان عليه من البرد القارس، فيذهب كل يوم إلي المدرسة لابسًا عدة سترات بعضها فوق بعض، ليسير المسكين متعثرا في ملابسه، ولا يخرج في المساء مطلقا، لأنه في الليل تزداد البرودة

يخافان على ابنهما من أي حمولة ثقيلة، فهو لا يستطيع أن يحمل كيلو خيار أو حتى خمس أرغفة من المخبز، فهذا أمر ثقيل يتسبب في تعب قلبه المسكين، والذي كلما يطلب منه أي شيء لا يريد عمله، يمسك قلبه في حركات تمثيلية مكشوفة ويصرخ "قلبي .. قلبي" ففورا يعفى من حمل أي شئ. في البداية كان يكذب، والجميع يعرف أنه يكذب.. ومع الوقت صدق الجميع كذبته، حتى هو نفسه صدق تلك الكذبة .

أيضا ممنوع على سامي أن يلعب مع الأولاد الذين في سنه، فجميع الأولاد أشرار يريدون آذيته المسكين، لذلك فمن الأفضل ألا يحادث أحدا، ولا يصادق أحدا. وهكذا نشأ سامي منطويا على نفسه بلا صديق ولا اهتمام بأي شئ. ذاته هي مصدر اهتمامه الوحيد. بها يهتم وفي محرابها يعبد .. هو لم يعرف إلها غيرها، و لم يهتم أن يكون له صديق سواها.

كل هذا وسامي لا يشعر بأي حرمان، فهذا بالنسبة له تميز.

سامي أيضا بدوره يخاف على نفسه كثيرا.. من أي شئ؟!
يخاف من أن يدرس، فالإكثار من الدراسة غير محبذ بالنسبة له، فهذا إجهاد على ذهنه من الصعب احتماله.. وربما يؤثر إجهاده الذهني هذا على قلبه الضعيف، فكان في سنوات النقل ينجح بالتساهيل، وأيضا بوصاية والده المربي الفاضل .

سامي منذ طفولته، إلى أن وصل إلى مرحلة الصبا والمراهقة، محروم من كل شيء، وهو يظن أنه في الكفة الرابحة.. محروم من الأصدقاء، والمعيشة الطبيعية، بل ومن العبادة.. ولم يتقن طوال هذه السنوات إلا شيئا واحدا.. يأكل ويأكل حتى صار كالعجل .. ضخم الجسم، ولا يتقن أي شئ.. لم تسنح له الفرصة كي يكتشف أي موهبة يملكها، فهو لم يجرب أي شيء، أو يهتم بأي شيء..

يصل إلى الثانوية العامة، في نفس الوقت الذي يخرج والده معاشا، وتنتهي قدرته علي الاعتناء بابنه.. والثانوية العامة يجب فيها أن يبذل كثيرا من الجهد. ويحاول سامي، ولأول مرة يحاول سامي شيئا. وتمر السنون والسنون والشاب لا يزال يحاول.. وتمر السنون، ويكبر الأستاذ سعيد ويشيخ، ويحتاج إلى معاون له.. فينظر إلى ابنه المدلل، الذي أحبه، يطلب مساعدته، وخاصة بعد زواج البنات الثلاث وانقطاعهم عن زيارته..

كيف؟.. كيف يساعده وهو لم يتعود أن يهتم بأحد غير نفسه، أو ينظر لأحد غير نفسه.. تعود أن يكون مصدرًا للاهتمام ومصدر للشفقة، بينما لا يشفق هو على أحد.

- يا بني، لقد أصبحت شيخا ولست بقادر، ونظري ضعف فلم أعد أرى سوى أشباح ... فقط اشتر احتياجات البيت .

ويثور الابن، فكيف يتجرأ أبوه ويطلب منه شيئا. إن وظيفته في هذا البيت أن يطلب وأن تنفذ طلباته.. هكذا كانت ترتيبات الأمور في البيت دائمًا، وستظل، لأنه لا يزال يحتاج، وعلى الأب أن يلبي.. رجع الأب يسأل:

- ماذا تحتاج يا ابني؟!

وتعجب الشاب، ألم يفهم أبوه احتياجه؟!! إن طلباته واضحة.. وطلب..

وكان هذا الطلب عجيبا.. أن يدبر له أبوه شهادة ثانوية عامة!

- كيف ؟ لو كانت تشترى لاشتريناها؟ ولكنها تعتمد على مجهودك أنت!.

هو لا يعرف كيف، ولكن ببجاحة صرخ في والده، يطلب منه تدبير شهادة ثانوية عامة، يتمكن من خلالها الدخول إلى أي كلية. حاول والده أن يفهمه أن هذا الأمر بالذات يعود إليه، ولا يستطيع أحد أن يفعل شيئا.. فما كان من الولد إلا أن أمسك سكينة المطبخ، مهددا والده بالقتل. تخرج الأم خائفة، ليس على زوجها المهدد بالسكين، ولكن على ولدها المسكين وأعصابه المنهارة. وتصرخ المرأة الجاهلة في زوجها أن يلبي طلبة ابنها الوحيد.. إنه لم يعتد أبدا ألّا تنفذ طلباته مهما كانت غير منطقية.

ونظر إليهما الأستاذ سعيد.. ومسح دمعة ساقطة من عينين لا تريان الكثير، وابتعد عن المكان وهو يبكي سنوات عمره الذي ضاع.

***

انتهى الأستاذ سعيد من مشترياته، وأمسك السلة الثقيلة، وفي آلم واضح عاد إلى بيته وهو يكلم نفسه..

- طلب شهادة ثانوية عامة، كيف أدبر له هذه الشهادة يا رب؟!

يرفع الأستاذ سعيد عينه إلى السماء كي تعينه على هذه المصيبة، ويسير متعثرا في خطاه. وعندما يصل قرب بيته، ينظر إلى الشرفة.

كان لا يزال تمثال الشرفة قابعا مكانه، ناظرا إليه بنظرات التحدي والتهديد والكراهية .. وكان صوت فريد الأطرش لا يزال عاليا.

الوهم



كان كل واحد في أحلامه، وهما في الطريق إلى الأردن، بعد أن استقلا السوبرجيت خارجين.. ولكن الأحلام تتشابه، كما أن حياهما تتشابه، فهما الاثنان انتهيا معًا من دراسة الدبلوم الفني في بلدهما الصغيرة "ببا"، والتي تتبع محافظة بني سويف، وهم الاثنان أنهيا خدمتهما العسكرية معا، وهما الاثنان عملا معا في مهنة "النقاشة" قرابة السنتين معا. ولكن أحلامهما اشتركت في أن يعملا بالتجارة. أن يفتحا محلا لبيع أدوات البناء في نفس البلدة الصغيرة. حلم صغير يحتاج الى رأس مال لم يكونا يملكانه. لذلك قررا السفر. ولأن الاردن أقرب بلد الى مصر، ولا تحتاج الى إجراءات طويلة أو معقدة للدخول، قررا أن يذهبا الى هناك.. يعملان ويوفران كل فلس، حتى يتسنى لهما أن يحققا الحلم ... عام أو عامين أو ثلاث يقضياها في الغربة، ويرجعان ومعهما رأس المال الكافي لبدء المشروع.

في الواقع.. الغربة في حد ذاتها لم تكن هي الهدف، بل المشروع هو الهدف ... وقد أتفقا أن يجمعا معا ما يساوي العشرين ألف جنيها مصريا.. ١٠ آلاف يضعوها كخلو للدكان، والعشرة الأخرى يستخدمانها في وضع بعض البضاعة، التي تكون هي رأس المال للمشروع.. بضاعة قليلة تكبر مع الزمن.

لقد خططا كل شيء.. واتفقا أن يكونا على الحلوة والمرة معا . وألا يفارقا بعضهما أبدا ...يستقلا الأتوبيس (المعدية) ويعبران إلى الضفة الأخرى، فيقول جودت لفوزي:

- ها قد بدأ المشوار يا عزيزي.

- لا يزال أمامنا ما يقرب من ثلاث ساعات حتى نصل إلى عمان.

- هيا لنرفع صلاة، حتى ترافقنا المعونة الإلهية منذ البداية. وانشغل الاثنان من جديد في الدعاء والفكر، دون أي كلام، في انتظار الوصول إلى الأردن.

***

لم تكن المعيشة أبدًا سهلة في الأردن.. فهما لم يدخلا بناء على عقد عمل، بل كانا كل يوم من السادسة صباحا يقفان

عند الدوار السابع، بجوار محل اسمه {مشوار}، ومعهما أكثر من مائة عامل مصري في جميع التخصصات، ينتظرون المقاولين بدون ترتيب.. وكان الجميع يقف متلهفا على العمل، فكل يوم عمل يقرب الأحلام، ويقلل من سني الغربة. ولكن الأمر ليس سهلا.. فقد تحول إلى صراع بين الجميع، وكله لصالح المقاول، الذي يأتي في الصباح، فيتهافت عليه العمال، ليحدد المقاول طلباته.. أريد واحد نجار مسلح واثنين من عمال النقاشة وثلاث كهربائية وواحد مواسرجي (سباك).. ويبدأ في الاختيار، ويصعد كل من وقع عليه الاختيار إلى سيارته، ويرحل تاركا الباقي في انتظار مقاول آخر.

وتمر الأيام، ويوم يشتغل صاحبانا، وأيام يبقيان مكانهما إلى الساعة السادسة مساء، ثم يرجعان إلى سكنهما في يأس.

تلك العيشة قللت من ارتباطهما معا.. فكثير من الأيام يتزاحمان على عمل واحد، ويصعد واحد منهما إلى سيارة العمل، ويبقى الآخر... ظهرت المشادات والمشاحنات.. وعلى الرغم من هذا، ظل الهدف موجودا عند الاثنين.. جمع المال بهذه الطريقة في منتهى الصعوبة.. والمبلغ الذي يجمعانه في أسبوع، يصرف أكثر من نصفه في أيام البطالة.

***

النهار قد انتصف في ذلك اليوم شديد الحرارة، والاثنان يقفان على ناصية الدوار السابع بجوار النافورة، وأمامهما ذلك المحل الذي يبيع الحلويات الشامية الجميلة (مشوار).. ينظر فوزي في يأس الى جودت ويقول:

- يبدوا أن مشوارنا طويل يا عزيزي.. الأمور ليست سهلة كما تصورنا.

ينظر اليه جودت بعيون مليئة بالإصرار والتحدي ويقول له
-ولكننا سننهيه.. لن نتوقف أبدا، ولن أرجع إلا وفي يدي ثمن الدكان.

يمر رجل يبيع تذاكر (شووت)، ويعرض التذاكر على فوزي وجودت.. تلك التذاكر التي صممت بطريقة أشبه بأوراق اليانصيب، ودخلها موجه لدعم كرة القدم الأردنية.. كانت لها جوائز مالية قيمة، تبدأ بخمسين دينارا، وتنتهي بخمسة وعشرين ألف دينار أردني.. نظر جودت إلى فوزي، وقال له
- ما رأيك؟

نظر فوزي إلى جودت شذرا، وقال له بحدة

- رأيي! هذا حرام، وستضيع الفلوس التي نستثمرها في مقامرة.

يرد جودت بإصرار:

- ليست مقامرة، ولكنه مشروع خيري .. ما رأيك أن نساهم في تطوير كرة القدم هنا في الأردن.

صرخ فوزي:

- يا صديقي لن تكسب إلا ضياع مالك... الدينار ثمنه سبعة جنيهات مصرية الآن.. لا تكن مغفلا ...

يضحك جودت ويقول:

- أحيانا أحب أن أكون مغفلًا.. ما رأيك أنا أدفع نصف دينار، وأنت نصف دينار؟.. والمكسب بالنصف والخسارة تقل.

يتوتر فوزي ويصرخ:

- أنا لا أدخل هذه اللعبة أبدًا.

- أعدك أنني لن أدخلها إلا الآن ... لدي شعور كبير بالمكسب.. هيا نجرب ياعزيزي.

- لا.

- ها هي الورقة.. ها..هل ستدفع وتشاركني المكسب؟

- لا.. وإذا أصررت على الاشتراك، سأفصل ما أجمعه أنا عنما تجمعه أنت.. فأسلوبك هذا يجعلنا لا نستطيع أن ندبر مالنا..

قالها بتحدٍ وإصرار بالغ.. ينظر جودت اليه.. هو لا يحب أسلوب لي الذراع في الحوار، ولا يحب أن يشعر أنه مضغوط عليه لكيلا يفعل شيئا... فأصابه العند الصعيدي وقال:

- سأشتري.. ولكن تذكر.. إذا كانت كسبانة لن أعطيك فلسا واحدا، لأنك رفضت المشاركة معي.. على الرغم أننا اتفقنا أن نكون معا في كل شيء.

- في كل شيء في العمل.. أما ما تفعله فليس عملا، وأنا لن أشاركك خسارة مالك.. وتذكر أنني عندما أرجع الى البيت سأفصل مالي عن مالك.

***

ويشتري جودت التذكرة، وينتظر حتى يرحل البائع.. وبهدوء يبدأ في كشط المواضع التي تحتاج إلى كشط.. في البداية يرى المبلغ الذي سيكسبه، فوجده خمسة آلاف دينار. ويكشط العبارة الأخرى، التي في العادة تكون (أوت) ولكنه فوجئ إذ قرأ عبارة (جون)

لقد كسب.. خمسة آلاف دينار أردني.. أي ما يوازي خمسة وثلاثين جنيها مصريا.. هل هو حلم؟!.. ينظر إلى صديقه فوزي، الذي احمر وجهه ليصير كالرمان... ثم صرخ في فرح:

- لقد كسبت.. انظر ... خمسة آلاف دينار.. لقد ربحت خمسة آلاف دينار... يعني خمسة وثلاثين ألف جنيها مصريا.. لقد أنهيت غربتي يا عزيزي.. هذا آخر يوم سأقف هنا.. وسأحقق حلمي.

نظر فوزي باستحياء وقال

- ألف مبروك.. لقد كنت على حق.. سنحقق حلمنا معا.. ألم نتفق على أن كل مكسب يكون بالتساوي ؟؟

نظر إليه.. ضحك كثيرا، ثم قال:

- منذ متى؟.. لقد انتهى كل هذا، وفصلنا مالنا عن بعض منذ أن اشتريت هذه الورقة.. ألم تقل ذلك منذ دقائق؟.. وحتى هذه الورقة، كنت سأخسر ثمنها بمفردي.. على أي حال مستعد أسلفك ثمن الرجوع بالطريق البري.. أما أنا فسأرجع بالطائرة.. ومستعد أشغلك معي كعامل في الدكان.. ولكن صاحب الدكان هو أنا.

ظهرت كل أشكال الحقد والكراهية على وجه الصديق.. صرخ فيه:

- أفضل الموت على هذا.. سأستمر هنا أبحث عن حلمي . وهنيئا لك بتحقيق حلمك.. وسترى كيف يكون سيكون فوزي في المستقبل.. هل تفهم؟ سأريك.

***

لم يعد جودت يقف أمام دكان الحلويات (مشوار)، فقد انتهى مشواره في الأردن، ورجع الى بلده ليبدأ مشروعه.. وتمر الأيام والشهور.. وترى فوزي واقفا أمام مشوار.. ينتظر تحقيق حلمه، ولكن الأمر اختلف.. فلم يعد فوزي يضع القرش على القرش.. كان يعمل ويعمل.. وكل ما يكسبه يشتري به تلك الأوراق التي تساهم في تطوير الرياضة الأردنية من قدم إلى سلة إلى يد... لقد أدمن هذه الأوراق، حتى صارت هي حياته وحلمه.. يقول لنفسه مع كل ورقة " أشعر أن في هذه الورق رجائي وأملي، وينتهي بها مشواري".. ولكن المشوار لا ينتهي... ولا يزال فوزي واقفا أمام (مشوار).. ينظر الى الحلوى ولا يتذوقها.. وفي يده عدة الشغل، وأوراق تساهم في تطوير الرياضة الأردنية.

الفهـــرس